

تفسير ابن كثير

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ^ط وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ^ط كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ^ج يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه : أنه الذي يأذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد ، بل يأذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لا تنال ولا يدرك مداها ، فالسمااء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام . ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية ، بما فيها ، وبينها وبينها خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال [الله] تعالى : (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمريهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) [الطلاق : 12] وفي

الحديث : " ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض
فلاة ، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة وفي رواية : " والعرش لا يقدر
قدره إلا الله ، عز وجل ، وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض
مسيرة خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وهو من ياقوتة
حمراء .وقوله : (بغير عمد ترونها) روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة :
أنهم : قالوا : لها عمد ولكن لا ترى .وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل
القبة ، يعني بلا عمد . وكذا روي عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق . والظاهر من قوله
تعالى : (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) [الحج : 65] فعلى هذا يكون
قوله : (ترونها) تأكيداً لنفي ذلك ، أي : هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها . هذا هو
الأكمل في القدرة . وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه ، كما ورد
في الحديث ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل ، رحمه الله ورضي عنه :وأنت الذي من فضل
من ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا فقلت له : فاذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون
الذي كان طاغيا وقولا له : هل أنت سويت هذبلًا [وتد حتى اطمأنت كما هيا وقولا

له : أأنت رفعت هذهبلا [عمد أرفق إذا بك بانبا ؟ وقولا له : هل أنت سويت وسطهامنيرا
إذا ما جنك الليل هادبا وقولا له : من يرسل الشمس غدوة فيصبح ما مست من الأرض
ضاحبا ؟ وقولا له : من ينبت الحب في الثرفيصبح منه العشب يهتز راببا ؟ ويخرج منه
حبه في رءوسهففي ذاك آبات لمن كان واعباوقوله : (ثم استوى على العرش) تقدم
تفسير ذلك في سورة " الأعراف " وأنه يمرر كما جاء من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا
تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوا كبيرا .وقوله : (وسخر الشمس والقمر كل يجري
لأجل مسمى) قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كما في قوله تعالى
: (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) [يس : 38] .وقيل : المراد إلى
مستقرهما ، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر ، فإنهما وسائر
الكواكب إذا وصلوا هنالك ، يكونون أبعد ما يكون عن العرش ؛ لأنه على الصحيح الذي
تقوم عليه الأدلة ، قبة مما يلي العالم من هذا الوجه ، وليس بمحيط كسائر الأفلاك ؛ لأنه
له قوائم وحملة يحملونه . ولا يتصور هذا في الفلك المستدير ، وهذا واضح لمن تدبر ما
وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة ، والله الحمد والمنة . وذكر الشمس والقمر ؛

لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة ، التي هي أشرف وأعظم .من الثوابت ، فإذا كان
قد سخر هذه ، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى ، كما
نبه بقوله تعالى : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه
تعبدون) [فصلت : 37] مع أنه قد صرح بذلك بقوله (والشمس والقمر والنجوم
مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) [الأعراف : 54] .وقوله :
(يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أي : يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه
لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه .